# رمادية الرواية الحديثة

بقلم محيي الدين محمد

ما الذي يميز الرواية الحديثة عن آثار كتّاب كبالزاك و فلوبير وديكنز .؟

كان جهد الخالق قديماً أن يصفّ بعض الحوادث المركبة بنزق واضح .. على أن تكون عقدة قصصية .. ينتهي عمل البطل بها عندما تُحلّ هذه العقدة في نهاية الكتاب بارتجال سخيف ، بعد مرورها بمفاجآت ومغامرات وتحبيكات عدة ، لا تخرج ابداً عن المضمون الذي دُفع . فان جميع أحداث الرواية القديمة كانت تقدم على واقع نمد أبداً ، ولا يعرف الا المشكلة التي جُعل من أجلها .. اية ( كقصة مدينتين ) لها أبطال معدودون ، فعندما يختفي حدث ما يبدأ حدث آخر لبطل ثان .. على ان جميع هذه الاحداث مرتبطة بالجوهر الاساسي الذي بنى عليه المؤلف قصته .. فلا تخرج عنه او تحيد .. ولكن هذا لا يمثل حياتنا التي تمتلىء بأشياء خوارج .. ففي طريقنا لعمل شيء مثلاً نمرّ مسجلين أحداثاً ، مدهشة .. تمثل واقعاً متضخماً حقيقياً محايداً .. ترام مكتظ بالبشر .. طفل يسأل عن الوقت .. شيخ يسأل عن الطريق ..

ما من شك أن هذه الاشتات التي نجمعها من هنا وهناك تستطيل في شعورنا ممثلةً طبيعة حياتنا بواقعها الصحيح . اما في اعمال الكلاسيكيين الخالدة ، فاننا لا نستطيع تتبع هذه الرمادية المحايدة التي تكوّن الـ Background للرواية المحكية .

في جين آير Jane Eyre « لشارلوت برونتي » لا يمكننا تمثل هذه الوقائع المفزعة جيداً.. إلا كما تتمثل لنا من خلل الضباب أبراج كنيسة.. إننا نفتقد الصدق الذي توضحه لنا الاشياء العادية:

« نعم(١) ؛ وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة.. كلهم مغمومون كأنهم الملوك . يسألونك أن تشرفهم بالدخول من حوانيتهم الصغيرة.. وروندا والنوافذ القديمة تطل خلسة . وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الاسياخ الحديدية ...

هذا الصدق هو الذي يرتفع بالاثر الفني .. وليس بجمالية خاصة . الصدق الذي نحسه في دقائقنا المعاشة .

في «نوتردام دو باري» « لهوجو » تتهيأ جميع احداث القصة لكي تأخذ السمت الواضح الذي حدده الخالق ، وليست هناك شخصية واحدة تستطيع دفع نفسها مفلتة من عالم القاص .. ، ومن خلال أعمال لا تُصدق لغرابتها — كما في « الكوليرا نابولي » من كتاب ( احدوثة سان ميكيل ) لأكسيل فوتيه نستطيع شمّ العفونة الفظيعة الحقيقية في دروب المدينة الميتة .. بل يمكننا — بقدرة ضئيلة على التصور — مراقبة الفيران الشنيعة الدائرة تصبّ الملاك .. هنا .. وهناك ..

« ثم اندفعت تعيث في المدينة فساداً وإزعاجاً بأنيابها السوداء الطويلة وعيونها الوحشية التي في لون الدم ، وذيولها الحمراء الرفيعة المجردة من الشعر .. !! »

ليست الحياة دراما كلها ليظل شخوصها حزانى حتى نهاية الكتاب فأين تذهب هذه اللحظات العبقرية التي تلهمنا السرور والانبساط ؟!

وحتى هذه الكوميديات المغرية في اصطناع الضحك ( كبيكويك والدون كيشوت ) ... انجد مثل هؤلاء الناس الآن .؟ أنستطيع دوماً ان نعيش حياتنا في انبساطية تامة .؟ أفنقدر ( كهاملت ) أن نحيا في مأساته المترددة حتى ختام أعمارنا؟

ان حياتنا ليست كوميديا أو مأساة .. فنحن جميعاً تتوزعنا لحظات همّ وفرح ولحظات أخرى رمادية لا صبغة لها فهل فاتت هذه الملاحظة أذهاناً وثابة نقادة كأذهان أولئك المردة العظام .؟

في قصة ( شتاينبيك ) « فيران ورجال » نجد أن الرمادية تسود الكتاب كله كمحاولة لتقرير الواقع الحادث .. فما هو الجديد الذي استحدثه ( هوايتي ) في القصة : « لقد اعتاد ان يغسل يديه .. حتى بعد الطعام .. » ولا تقرر هذه الحقيقة التي تبدهنا بيقينها البسيط — شيئاً ما جديداً .. وحتى عندما تُقيد ضربات قدم ( سميتي ) القوية لتتساوى مع ظهر ( كروكس ) المحطم .. فاننا لا نخرج منها بما يساعد ( ليني وجورج ) على ابتعاث مزرعتها الخيالية بأرانبها الملونة وخنازيرها وخضرتها الدائمة .. وهي هدف الرواية ...

بل ان غرابة حادثة يدبن صاحب الارض التي يضعها في قفاز مليء بالفازلين — والتي تثير فينا استنكاراً مدهشاً — لا دخل لها في القصة كلها ... أفنعتبر هذه الحوادث حشواً أو أنها محاولة لنقل الواقع الملموس.؟ اننا لا نستطيع تصور بطل

(١) جيمس جويس ( لويس عوض )

قصة ما يعيش قصته كلها من أجل العقدة التي خلق ليفضها .. أفنحيا نحن حياتنا كلها للبحث عن زوجة مثلاً .؟ افتكون كل تصرفاتنا وكل آمالنا وكل مشاكلنا ملتصقة تماماً بهذه الرغبة؟

في « يوليس » لجيمس جويس نجد ان الديدبان الواقف أمام دار الحاكم والذي شوته الشمس ، والمزاد الذي يشهده اليونانيون واليهود والعرب — نجد هذه الملاحظات الغريبة التي تحكي أسلوب ( ماريون بلوم ) لا تدخل في الواقع الذي تتجه اليه القصة . انما هي محاولة صادقة للتعبير الصحيح عن الحيدة الخارجية التي تبدهنا — بصفة مستمرة — والتي تمثل واقعنا كما نشهده وتجسمه لنا الرؤية ..

تماماً كبطل ( لص امين ) لدوستويفسكي : « لقد رأيت اليوم عجباً يا اسقافي ايفانوفيتش .. لقد قبضوا اليوم عليّ ... » ويسترسل المسكين يقص الاعاجيب التي أسرته ، وهي لا تمس المضمون الذي يؤلف القصة ، ولكنها تسهم مساهمة أكيدة في جعلنا نلمس حياة اللحم والدم التي يصورها. فكم من مرة يدخل حياتنا ثم يخرج منها بسرعة مدهشة رجال ونساء يمرون كالريح : شحاذون ، صغار يمرحون ... عربة تدوس قطة في الطريق ..

من المريح حقاً التفكير بأن حياتنا تسودها هذه الاشياء .. فبالرغم من انها لا تصور شيئاً فانها تضيف إلى حياتنا المنظمة تشويشاً وأثراً بيناً بالخلط .. فما هي الدفعة التي تدفعك بها سمكة ميتة رأيتها في سبيلك لعمل شيء ؟ ما هو الجديد الذي يضاف إلى شعورك او عقلك من ناحية المشكلة التي تتوزعك.. ما من شك أنها الحياة العادية التي لا لون لها.. لا ( سواد ) بودلير .. ولا ( بياض ) بروست .. حتى ولا الفراغ الفردي الذي مثّله ( دوهاميل ) في سلافان .. فجعله يضج بنعقات داخلية بكماء كما زعق ( لورانس ) من قبله .. إنها لا يتمثلان الطين اللزج الذي نغوص فيه . إنها يحلقان كالصقور الصلع فوق اودية صامتة تبرز فيها ، بجلاء ، عظام طباشيرية ناصعة .. إنهما لا يمتثلان لاحكام واقعنا الذي يتبين الصدق للوهلة الاولى .. فيدمغه بالخلود .. ؛ بل طوّفا بعيداً عبر أحلام تمثل عالميها الناكصين !!

فلأي شيء إذن يصر ( كافكا ) على رواية صور باهتة لأطفال يلعبون في صمت امام دار المحكمة . ؟ وفي قصة ( ساعي الدار ) عن امرأته التي تخونه وهو لا يستطيع ان يضع حداً لهذا الرهق !! أفيصور هذان الحادثان التافهان بالنسبة له رابطة ما بينه وبين شك البطل ووعيه بعبثه .؟!

ان الـ Background التي يضيفها الروائيون الكلاسيكيون مرتبطة أتم الارتباط بمضمون القصة .. لا تخرج عنها بحال تمسها دوماً بعكس الحادث باستمرار في الحياة العادية . ان مشاهد الطريق وحوادثه لا تمس المشكلة أبداً ، انها تكوّن ملحقاً للصورة ، ولكنها لا تندغم فيه . انها تساعد في اظهار صلتنا الوثيقة بالحياة ، ولكنها لا تؤثر في ماجريات الحوادث . اما مشكلة الطريق في ( برناي رج ) مثلا فهي تمس مضمون الرواية جداً ، بل لاتنفصل عنه . انها تمثل فقرة متداخلة في القضية ، بعكس الحادث باستمرار في الحياة الرمادية العادية..

فما الذي افاده ( لي تشونغ ) من ضفادع ( جونس ) وقططه .. التي يجمعها للمعهد البيولوجي . ؟

كان باستطاعة ( دافنشي ) ترك الـ Background خلف « الجيوكوندا » عارياً ابيض كي تزداد البسمة جلاء ، ولكنه رسم نبعاً وصخوراً لتتضح الصنعة الانسانية في ذلك الملاك.. إن ( دافنش ) صادق دائما بخلاف ( رفائيل ) الرّباني ..أرضيّ يحتك بمشكلات الارض ويسهم بابتكار آلات تعين البشر ، ممثلا الدفقة الوضاءة للمجهود الفني الصادق الذي يدرك العمق خلال الاحداث العادية .

أنستطيع ان نقرر على ضوء هذه البديهية ان ( قصة مدينتين ) أثر ساقط .. او غير واقعي .؟؟..

نادراً ما نجد لشخصيات حية .. ما حدث من الترابط والتقارب الذي نجده في هذه الرواية .. « فالمس بروس » يظهر لها أخ كان قد افترق عنهم طفلا .. و ( تشارلس دارني ) يشبه (سيدني كارتون ) شبها عجيباً .. لاهواء الخالق والمستقيم القصة .. فلو لم يتشابها لانتهت الرواية بروح مأساة .. اما لو حدث ونطق ( لي تشونغ ) حرف الراء .. او لو كان وجهه مستطيلا بدل ان يكون مدوّراً — بعكس الصينيين — في قصة شارع السردين المعلّب ( Cannery Row ) لشتاينبك .. لما وقع شيء عنيف كالذي يحدث لقصة قديمة.

فمعظم اعمال الروائيين الكلاسيكيين مترابط بغثاثة سمجة.. تصوره مثلا على اية مصادفة قامت قصة (مرتفعات ويذرنغ )!! فلو لم يأت الاب ( بها تكليف ) ، ذلك المتشرد الذي هو بطل القصة ، لما خُلقت الاحداث التي بنت كل هذه الرواية .

ولا تستقيم مثل هذه الروايات إلا على هذه المصادفات.

المحيّرة ـ التي يُصرّ على ذكرها روائيون خلف أذهانهم من المنطق الناقد ـ تأمل كيف بُنيت الوقائع الشاذة لقصة ( اوليفر تويست ) ذلك المتشرد الذي تتصارع كل الاحداث كي تعيده لعائلته ..

هراء لا نستطيع تلمسه في حياتنا الترابية .. لانعدام طابع الصدق المفتقد في معظم الاعمال الكلاسيكية .. فليس واقع الحياة ان نجد دائماً آباء مختفين او أشقاء ضائعين ..

ان القصة الحديثة تمتاز بأنها مستوجبة للتبادل : بمعنى أننا لو وضعنافرداً آخر بدل Striekland في « القمر وستة بنسات » لموم .. لما اختلفت الوقائع ..

انها جُهد الانسان العادي بلا امتياز ولابطولات خارقة. وكذلك فإن الرواية الجديدة لا تسهم في وضع المنفرات الهروبية غير الانسانية كأحكام نهائية على البشر والتي تطالعنا في ( فرتر ) الالهي .. على أننا لا نجده أبداً في حياتنا العادية.

انه انسان قديم ( ربّ مجنح ) .. لا يمتّ لعالمنا بصلة .. انه لا يعرف الطعم الحريف لحياتنا ولا يستطيع تذوق متعتنا الرخيصة لانه ليس منا ، ولانه ليس منا فهو يجذف عبر ضلالات عجيبة ، وردية حيناوزرقاءأحياناأخرى.. ليشعرنا ـ لا بالصدق الذي نحتاجه ـ ولكن بلون آخر سامق لا تطاله مشاعرنا التي تعي النتن وتستطيل فيه ؛ ولذلك فإننا نصدق ( إريك ماريا ريمارك ) في رائعته « كل شيء هادىء في الميدان الغربي » لانه يمزجنا بالدم والوحل وقبل كل شيء ـ بالانسانية التي يرتد عنها كل أثر كلاسيكي ..

وحتى ( مالرو ) .. فإنه في ( الصراع مع الملك La Lutte Avec L'ange ) يحاول بجاذبيته المعهودة إشعارنا بدفقة الحياة خلال احداثها البسيطة .

« ثم مَرّ قط مروراً مفاجئا ناعماً .. فاذا بي أشعر بالدهشة لوجود هذا الحيوان !! ».فمن خلال هذه الاكتشافات البديعة لنهج الحياة ولدفقاتها المدرارة .. يُجَسّدُ هؤلاء الروائيون شعورنا بالاشياء العادية التي تمر خاطفة فيسجلها شعور طاغ بالملاحظة..فالرواية تنهج نهجاً مركزاً في تقرير الرماديةالسائدة بإدراك صاف ، وصدق حقيقي وهما كل ما نحتاجه من الفن . فما هو الاثر الذي يتركه فينا منظر حذاء جميل في قدم شحاذ!! إننا نضحك إذ نجد مثل هذا الرسم .. إنه يختال بعيداً عن المنطق الحقيقي فيصيبنا بالحيرة ..

وحتى في معظم الافلام السينمائية ـ ما خلا الايطالية منها ـ نجد الروح القديمة سارية في القصص كما كانت أيام ( ثاكري . أوستن . برونتي ) .. سيرة واحدة بملاحظات تمسّ هدف الرواية الاصلي .. بكل المساعدة الممكنة التي يتقدم بها الـ Background المخلص لفكرة القصة ..

أما في « Sensualita » ـ وهو فيلم إيطالي ـ فإننا نجد البطل ينتظر امرأة في ردهة ، فيأتيه طفل تتدلى نصف سيجارة من فمه ، ثم يشده من ردائه ويسأله : « أتملك عود ثقاب ؟! » . فهذه الواقعة خارجة على الفيلم ، ولكنها تمثل الحيدة الحقيقية التي يقفها العالم الخارجي منا ..

لا نستطيع ان نضع للحياة قانوناً ما ، فليست شيئاً يمكننا حشره في جرة لنحمله معنا . لكل منا حياته الخاصة بذكرياته وآماله ومشاهداته .. أنستطيع أن نجعل من كل هذا الخليط المتضارب « كوميديا » مثلاً ؟؟

لنفرض أننا علقنا ( سقراط )(١) في سلة لنجعل من حياته مهزلة تُمثل .. فهل يمكننا منع روح الاسى التي يستشعرها الفيلسوف من الظهور .؟ ولكن قانون الكوميديا يمنع الجانب البائس في الفيلسوف من ان يطفو .. فنظل نحن نقهقه ـ بحمق ونزق ـ وبلا أدنى ظاهرة بالفهم ـ نقهقه حتى ختام التمثيلية .

اننا لم ندرك انها لم تكن حياة تلك التي شاهدناها. لم تكن حياة . ولم تكن حقيقة .. كانت نسخة حمقاء من محاولة مبتذلة لتقليد الحياة ..

نستطيع إذن ان نقول بأن جُهد الرواية العادية يخص في استطاعتنا تبادل أشخاص القصة بآخرين احياء ، وإظهار الرمادية المعاشة والصدق الحقيقي النابع من الغور العام للحياة البشرية المتجددة . والذي يسخر من تقنين الملهاة والمأساة لحياتنا مع عرض الـ Background المحايد الذي لا يدلي برأيه في المشكلة الحادثة ، بل يبقى بعيداً معبراً عن الحياة القديمة التي تجري احداثها في هدوء وسكون ، وهذاهو ما يدفعه في الوعي أدب روائيين كشتاينبك وجويس ومالرو وكامو ..

أدب حقيقي يلمس بصدق صاف دفعة إثر دفعة من حياتنا المعاشة بلا تزييف ولا اختلاق اقداراً خاصة لاهداف خاصة.. ان الرواية الحديثة جُهد صادق ينفعل بالجهد البشري العادي المنغمس في حمأة الارض والوحل والطين !!

القاهرة — **محي الدين محمد**

(١) مسرحية ( السحاب ) لأريستوفان ، سخر فيها من سقراط .